القياس في اللغة العربية

للإِمَامِ

مُحَمَّدٍ الخَضِرِ حُسَين

القياس في اللغة العربية

للإِمَامِ

مُحَمَّدٍ الخَضِرِ حُسَين

شَيخ الجَامِع الأزهَر وَعَلَّامَة بِلَادِ المَغْرِبِ

مقدّمَة الإمام محمّد الخضر حسين

الحمد لله الذي جعل العربية أشـرف لسـان، وأنزل كتابه المحكم في أسـاليبها الحسـان. والصـلاة والسـلام على أفصـح العرب لهجة، وأبلغهم حجة، وأقوم الدعاة إلى الحق محجَّة، وعلى آله الأمجاد، وصـحبه الذين فتحوا البلاد، ونشـروا لغة التنزيل في الأغوار والأنجاد، وحببوها إلى الأعجمين حتى استقامت ألسنتهم على النطق بالضاد.

أمّا بعد:

فكنت أيام دراستي لعلم العربية أمرّ على أحكام تختلف فيها آراء علمائه؛ فيقصرها بعضهم على السـماع، ويراها آخرون من مواطن القياس، وقد يحكى الكاتبون المذهبين دون أن يذكروا الأصـول التي قام عليها الاختلاف؛ فأرى التمسـك بمثل هذه الأقوال من المتابعة التي لا ترتاح إليها النفس؛ ولا سـيما حين أذكر أن كثيراً من أصـحاب هذه الأقوال قد تلقوا اللغة وعلومها من كتب قد وضعنا أيدينا عليها، أو على أمثالها.

فأخذت أوجه نظرى إلى الاصـول العالية التي يراعونها في أحكام السـماع والقياس؛ حتى ظفرت بقواعد وقفت على جانب منها في صـريح كلامهم، وألممت بجانب آخر من طريق النظر في مجادلاتهم، وأساليب استدلالهم.

ولما هاجرتُ إلى دمشق، وشرعت سنة ١٣٣٥ في دراسة كتاب: "مغني اللبيب" بمحضر طائفة من أذكياء طلاب العلم، كنت أرجع في تقرير المسائل المتصلة بالسماع والقياس الى تلك الأصول المقرَّرة، أو المستنبطة التي اقترح عليَّ يومئذ أولو الجد منهم جمع هذه الأصول المفرَّقة؛ ليكونوا على بينة منها سـاعة المطالعة، فشـكرت همتهم، واسـتخدمت القلم في تحرير مطلبهم، فألفت مقالات تشرح حقيقة القياس، وتفصل شروطه، وتدل على مواقعه وأحكامه.

ثم عدت منذ عهد قريب إلى تلك المقالات، فرأيت جُمَلا تحتاج إلى تهذيب، وفصـولاً تقول: هل من مزيد؟ فجردت القلم لتهذيبها، وأضفت إلى تلك الفصول بعض ما يتسع به نطاقها، وتكبر به فائدتها، بل عقدت فصـولاً أخرى لمسـائل من أمهات علوم العربية يتناولها موضـوع القياس والسماع. ولا أدعي أني أخذت بمجامع هذا الموضوع الأسمى، وبلغت في بحثه الأمد الأقصى؛ فإنه واسـعُ المجال، مترامي الأطراف، يمتُّ إلى كلِّ باب من أبواب العربية بصـلة، ويكاد ذكره يجري عند تحقيق كل مسـألة؛ إنما هي أقوال لبعض أئمة العربية انتقيتها، وآراء خطرت على الفكر فتقبلتها، ولثقتي بن باعَك – أيها القارئ – في علوم العربية غير قصـير، ونصـيبَك من الإلمام بأبوابها ودرس مسائلها غيرُ يسير؛ لم أذهب في بسط القول وضرب الأمثلة مذهب من يُسرف في مقام الاقتصاد، ويَشغل سمعك بما يُشبه الحديث المعاد.

والله المستعان على بلوغ المرام، والمستعانُ به من كبوة الفكر وفضول الكلام.

محمّد الخضر حسين

في الكائنات ما يدرَك بإحدى الحواس، فيولد في الذهن صورة شيء آخر غير محسوس بالفعل؛ كالدخان المشاهد على بُعد، يولد في أذهاننا صورة النار، والنار غير ظاهرة لأبصارنا، وكالاحمرار يبدو على الوجه فجأة، فيحضر في أذهاننا معنى الخجل، ولم يكن قبل ظهور هذا الاحمرار حاضراً، وكلفظ الأسد يحضر في أذهاننا صورة الحيوان المفترس، وهذا الحيوان غير حاضر عندما يطرق اللفظُ أسماعنا.

ولا شيء يدل آخر بطبيعته حتى يكون مجردُ وجوده كافياً في الدلالة، وإنما توجد الدلالة بعد العلم بما بين الشيئين من رابطة؛ ولولا ملاحظة هذه الرابطة، لما اقترن شيئان في الذهن على أن هذا دالّ، وذاك مدلولٌ له. فالأوضاع البدنية؛ كتقطيب الوجه، تدل على بعض أحوال نفسية؛ كالغضب، وهذه الدلالة لا تتحقق إلا عند من عرف – بطريق التجربة مثلاً – أن تلك الأوضاع البدنية والأحوال النفسية يرتبطان في الوجود؛ وهذا هو الذي يمكنه أن يلاحظ هذا الارتباط، فتقترن تلك الأوضاع البدنية والأحوال النفسية في ذهنه، أولاهما بصفةِ دالة، وأخراهما بصفةِ مدلول عليها.

وإذا قالوا: إن الدلالة احمرار الوجه على الخجل طبيعية، فعلى معنى أن احمرار الوجه يرتبط بالخجل بقانون طبعي، أما نفس الدلالة، فإنها لا تتحقق إلا بعد أن يكون الناظر قد علم أن احمرار الوجه ينشأ عن الخجل، وهذا العلم إنما يحصل من نحو التجربة أو التلقين.

وعلى هذا النحو يجري حال الأمور التي لا يربطها بما تدل عليه قانون طبعي، وإنما هو العرف والاصطلاح، فإذا رأينا علماً على شاطئ البحر، عرفنا أن هناك سفينة. ومن البين أن لا رابطة بين العلم ووجود سفينة بالمرسى غير تلك الرابطة الذهنية الناشئة من اصطلاح الناس على أن يرفعوا على السفن أعلاماً.

ومن هذا الوادي: دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإن المعنى لا يحضر عند النطق باللفظ، أولا يحضر حضورًا تنشأ عنه فائدة إلا أن يسبقه العلم بأن هذا اللفظ قد وضع ليدل على هذا المعنى؛ وأن المتكلم به ممن يحذو في الكلام حذو هذا الوضع.

*** اللغة**:

اللغة – كما قال ابن جني –: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. وهي مزية عرف بها الإنسان، ولم يعرف في البشر أمة ليس لها لسان تعبر به عن حاجاتها، وقد حاول بعض الباحثين أن يثبت من تركيب أدمغة أشخاص عاشوا في القرون الخالية أنهم كانوا محرومين من

هذه المزية، فلم يستطع أن يقيم على ما يقوله دليلاً تام المقدمات صحيح الإنتاج؛ كما أن العلم لم يستطع أن يثبت لغير الإنسان من الحيوان لغة تخاطب. وفي "دائرة المعارف الإنكليزية" أن هذه المسألة لا تزال تحت البحث.

*** أصل نشأة اللغة**:

تصدى للبحث في أصل نشأة اللغات كثير من الفلاسفة والمتكلمين واللغويين، وذهبوا في البحث مذاهب شتى: هذا يقول: مصدرها التوقيف من الله، وذلك يقول: مبدؤها الطبيعة، وآخر يقول: منشؤها الاصطلاح والتواطؤ.

والقائلون: إن مبدأ اللغات التوقيف لا ينكرون أن تعدد اللغات ونموها من بعدُ كان بطريق الاصطلاح، وعلى حسب الحاجة، ورجح ابن حزم في كتاب "الإحكام" أن أصلها التوقيف من الله تعالى، ثم قال: ولا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة وقفوا عليها، بها علموا ماهية الأشياء وكيفياتها وحدودَها، ثم قال: ولا ندري أي لغة هي التي وقف آدم – عليه السلام – عليها أولاً.

وليس في أدلة هذه المذاهب ما يجعل النفس في قرارة من علم لا يخالطه ريب، وقُصارى ما وصل إليه الباحثون اليوم: أن الناظر في اللغة متى توغل في أطوارها إلى أقصى ما يسعه التاريخ، يصل إلى شذوذ في تركيب الكلمات، أو تركيب الكلام، بحيث يعتقد أن هذه اللغة لم تبلغ حالتها الحاضرة إلا بعد أن تقلبت في أطوار مرت عليها أحقاباً، فمن الصعب على الفيلسوف أو اللغوي أو المؤرخ أن يحكم في أصل نشأة هذه اللغات حكماً فاصلًا، وإنما يستفيد من بحثه في اللغات التي بين يديه أنها تكون في أول أطوارها قليلة الكلمات، غير متنوعة الأساليب، ثم تغزر مادتها، وتتعدد أساليبها، على حسب ما يكون للناطقين بها من ثقافة أو حضارة.

*** تأثير الفكر في اللغة**:

للفكر أثر في اللغة عظيم، ولولا الفكر، لفقدت اللغة خواصها، ولم يكن لوجودها أية فائدة؛ فإن الفكر هو الذي يربط الألفاظ بمعانيها، فيعمد إليها وهي أصوات فارغة؛ فيردها كالأصداف تحمل من درر المعاني ما يبهر العقل، أو كالأغصان تحمل من الثمار ما تشتهيه النفس.

والفكر: هو الذي يتوسل به الإنسان إلى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها، فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة، أو يبتاع فيها أساليب طريفة، ويضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها، وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها.

ومن شـــواهد تأثير الفكر على اللغة: أن اللغة لا يرتفع شـــأنها، وتظهر فصـــاحة ألفاظها وغزارة مادتها وحسن بيانها؛ إلا أن تلد أرضها رجالاً ذوي عقول نيرة وقرائح جيدة.

*** تأثير اللغة في الفكر**:

للفكر تأثير في اللغة كما أسـلفنا بيانه، وهذا لا يمنع من أن يكون للغة تأثير في الفكر من بعض الوجوه. وقياس هذا: أن العلم يزيد الأخلاق تهذيباً، وللأخلاق المهذبة – كالصـــبر على طول البحث، والإنصـــاف في المحاورة – دخل في توســيع دائرة العلم، أو تحقيق ما يشــكل من مباحثه.

تؤثِّر اللغة في الفكر من جهة أن المعاني لا تتمايز، ولا تخرج في وضـــوح، إلا أن يشـــار إلى كل معنى بلفظ يخصـه، فاللغة وسيلة الضـاح المعاني الغامضـة، وتنسيق المعاني المختلطة، والرجل الذي يريد أن يؤدي المعنى في صـورة منتظمة، يفكر في اختيار الألفاظ والأسـاليب أكثر ممن لا يبالي أن تقع صور المعاني في ذهن مخاطبه مبهمة مختلطة.

وتأثير اللغة في وضـــوح المعنى وتنظيمه في ذهن المخاطب أمر لا شـــبهة فيه، والذي يمارس التدريس أو التحرير، قد يحس في نفســـه معاني مجملة أو مختلطة، فيأخذ في معالجتها بالبسط أو التنسيق، وإنما يستعين على بسطها أو تنسيقها بكلام نفسي، وليس هذا الكلام النفسي إلا صـــور ألفاظ لغوية تتســـرب من قوة الحافظة إلى المفكرة، فللغة تأثير على الفكر من قبل أن يعبر عنه بالقلم أو اللسان.

واللغة: تصـــور ما يخطر في الفكر من المعاني، وهي التي تجعل المعاني محفوظة باقية، وكذلك يقول أحد الفلاسفة: "الأفكار التي لا تودع في الألفاظ كالشرارات التي لا تبرق إلا لتموت".

ولا تقتصـــر اللغة على نقل ما يجرى في أقوال الأجيال الماضـــية من المعانى الحيوية، أو الآراء العلمية أو الأدبية، بل تنقل إلينا طرق تفكيرهم؛ ومن الواضـــح أن الأقوام يختلفون في طرق التفكير وطرز تفكير كل قوم مبثوث في ألفاظهم، ومدلول عليه بأساليب مخاطباتهم.

*** هل يمكن اتحاد البشر في لغة؟**

يقول الباحثون في اللغات: كانت اللغات في أول الأمر فقيرة مختلفة؛ إذ كان لكل جماعة صغيرة من البشر لسان خاص، وبكثرة اختلاط صنوف البشر، واشتراكهم في المنافع، أخذ بعض اللغات يقترب من بعض، بل أخذ بعضها يندمج في بعض، فقل عددها، واتسع نطاق بعضها.

ثم رأى بعض علماء أوروبا مثل (ديكارت): أن تعدد اللغات أدى إلى صـــعوبة التفاهم بين الأفراد المختلفة الشـــعوب، وهذا مما يجعل ســـير المدنية بطيئًا، فارتأوا وضـــع لغة جديدة لتكون

لسان البشر جميعاً، وقد سعى لإنفاذ هذا الرأي الطبيب البولوني: لودفيج زامنهوف ludwing zamenhof، فوضع اللسان المسمى: الاسبرانتو Esperanto.

وقد اعتمد في تألفيه على ثمانية وعشرين حرفاً، ووضع له ست عشرة قاعدة، ومعظم كلماته من اللغة الرومانية والإنكليزية، وفي العالم جمعيات تدعو لهذا اللسان يقدرونها بنحو: ١٧٧٦ جمعية، وفي ألمانيا وحدها من هذه الجمعيات ٤٤١ جمعية، مركزها الرئيسي في مدنية "لايبسيك"، ولجمعيات العالم كلها مركزان أساسيان، أحدهما في جنيف، والآخر في باريز. وفي أوربا وأمريكا والصين واليابان صحف تصدر بهذه اللغة، وفي "دائرة المعارف الالمانية" أن عدد الذين يتكلمون بها يقرب من مئة وثلاثين ألفاً.

وإذا أمكن انتشار لسان من الألسنة حتى يعرفه جميع الأمم، زيادة على ما يعرفون من لغاتهم القومية، فمن الصعب جداً أن ينتشر بين الشعوب– على اختلاف مواطنها– لغة تستولي على ألسنتها، وتطمس على آثار لغتها؛ فإن الألسنة تابعة لأحوال التفكير والإحساس، وهل من سبيل إلى أن تتحد الأمم في تفكيرها وإحساسها؟.

* اللغة العربية لا تموت:

ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الأمم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها، وتقيم هذه اللغة مكانها، واذا فرضنا أن شعوبًا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها؛ فإن الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية أحرصُ الناس على حياة لغتهم، فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة أخرى، وإن تضافر على هذه اللغة أمم الأرض جميعاً.

تأبى هذه الشعوب هجر اللغة العربية، وتحويل ألسنتها إلى لغة أخرى، تأبى ذلك؛ لأنها لغة القرآن، الذي هو معجزة الرسالة، ومطلع الهداية، ولأنها تملك من فصاحة الكلم، وحكمة الأساليب، وغزارة المادة ما يجعل خطيبها أو شاعرها أو كاتبها المجلي في حلبة البيان، فلو زهدت هذه الشعوب الإسلامية في اللغة العربية، كانت قد فرَّطت في جنب الله، وأضاعت من يدها لساناً بلغ في الإبداع أقصى ما يمكن أن تبلغه لغات بني الإنسان.

كتب "جول فرن" قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العود إلى ظاهر الأرض، بدا لهم أن يتركوا هنالك أثراً يدل على مبلغ رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للغة العربية، قال: إنها: لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه.

*** اللغة في عهد الجاهلية**:

كانت اللغة في عهد الجاهلية تعبر عن حاجات القوم، وما تجود به قرائحهم، أو يجري في مخيلاتهم من صور المعاني، فما كانوا ليحسوا نقصًا في لغتهم، وإنك لترى المذاهب التي كانوا يطلقون فيها أعنتهم؛ كالفخر والنسيب، فسيحة الأرجاء إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه الناشئ في مثل بيئتهم، الآخذ من المعاني المحسوسة أو المعقولة مثل مأخذهم، ومن نظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم، وجد من جودة تصرفهم في المعاني، وحسن سبكهم للألفاظ ما يدله على أنهم كانوا يرسلون الفكر والخيال، ويصوغون ما شاؤوا من المعاني، فيجدون في ألفاظ لغتهم وأساليبها ثروة تسعدهم على أن يقولوا فيبدعوا.

وإليك مثلاً من إبداعهم في الفخر بالبسالة والثبات في حومة الوغى، قال ودّاك بن ثميل المازني يخاطب بني شيبان:

رويد بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غداً خيلي على سَفوَان

تلاقوا جيادًا لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المأزق المتدانى

عليها الكماة الغر من آل مازنٍ ليوث طعان عندكل طعان

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم على ما جنت فيهم يد الحدثان

مقاديم وصَّالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمان

إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأيّ مكان

هذه الأبيات إيذان بالحرب، افتتحها الشاعر بشيء من التهكم، فقال: "رويد بني شيبان بعض وعيدكم"، وإنما كان طلبه الكف عن بعض وعيدهم تهكماً؛ لأن هذا الطلب شأنه أن يصدر ممن يعتقد قدرتهم على تنفيذ كل ما يوعدون به، وبعد أن تظاهر بإكبارهم، والرهبة من وعيدهم على وجه التهكم، فاجأهم بإنذار بليغ هو: لقاؤهم فرسان قومه بالمكان المسمى "سفوان"، فقال: "تلاقوا غداً خيلي على سفوان".

ثم وصف هذه الخيل بأنها متدربة على الحروب، غير هيابة من مضائقها، فقال:

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المأزق المتداني

وليســـت الخيل كافلة للنصـــر إلا أن تكون أعنتها في أكفّ رجال لا يلوون جباههم عن طعان، لذلك أردف هذا البيت بقوله:

عليهـا الكمـاة الغُرّ من آل مـازن ليـوث طعـان عنـد كـل طعـان

وفي وصـفهم بالغر إيماء إلى شـاهد من شـواهد قوة الجأش، وهو طلاقة الوجه، ووضـاءته عند لقاء الأقران، وقال: "عند كل طعان"؛ ليدل على أن الشـجاعة قد أشـربت في نفوسـهم، فلا تتأخر عنهم في موطن، ولا تغيب عنهم في حال، وعزز هذا البيت بقوله:

تـلاقـوهـم فـتـعـرفـوا كـيـف صـــبرهـم على مـا جنـت فيهم يـد الحـدثان

ليدل على أن خلق الصبر فيهم وثيق العرا، واسع المدى، وليسوا ممن يزفون إلى الحروب زفيف النعام، حتى إذا طال عليهم أمدها، وكثر ما لا قوه من مكارهها، ضـجروا من صـحبتها، ومالوا بالسيوف إلى أغمادها. وفي الناس أولو شجاعة، ولكن شجاعتهم لا تتجاوز بهم أن يبسطوا أيديهم على قدر ما تناله سيوفهم أو رماحهم، فقصد الشاعر إلى أن يدل على أن قومه ليسوا من هذا المصنف، فقال:

إذا اســتنجِدوا لم يســألوا من دعاهم لأيــة حــرب أم بأي مــكــان

فأخبر أنهم كالجند، متأهبون للخوض في غمار الحروب، ولا يزيدون على أن يسمعوا نداء من يستنجدهم، فيطيروا إلى ما يناديهم له، غير سائلين عن سبب الحرب، أحق هو أم باطل، ولا عن مكانها أقريب هو أم بعيد.

* تأثير الإسلام في اللغة:

طلع الإســلام على العرب وفي هدايته من المعاني ما لم يكونوا يعلمون، بل في هدايته ما لم تفِ اللغة يومئذ بالدلالة عليه، فعبر عن هذه المعاني بألفاظ ازدادت بها اللغة نماء.

ومن الجلي أن القرآن الكريم والحديث النبوي قد سـلكا في البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ، ثم إن فتح الممالك الكبيرة؛ كبلاد الفرس والروم زاد مجال اللغة بســطة بما نقل إليها من المعاني العلمية أو المدنية، ففضْــل الإســلام على اللغة العربية يظهر في غزارة مادتها، وبراعة أساليبها، واتساع مذاهب بيانها، وكثرة الأغراض التي يتسابق إليها فرسان الخطابة والكتابة.

*** فضل اللغة العربية**:

للغة العربية فضـــل من جهة اعتدال كلماتها؛ فإنا نجد أكثر ألفاظها قد وضـــع على ثلاثة أحرف، وأقل من الثلاثي ما وضــع على أربعة أحرف، وأقل من الرباعي ما وضــع على خمســة أحرف، وليس في اللغة كلمة ذات ســتة أحرف أصـــلية، وقد جاءت ألفاظ قليلة جداً على حرف واحد، أو على حرفين.

ولها فضــل من جهة فصــاحة مفرداتها، فليس في كلماتها الجارية في الاســتعمال ما يثقل على اللسان، أو ينبو عنه السمع. وللعارف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضــاءة قطعاً أو خطبًا أو قصــائد تســترق الأســماع، وتســحر الألباب، ولعناية العرب بتهذيب الألفاظ زعم قوم أن العرب تعنى بالألفاظ، وتغفل المعاني، وهؤلاء هم الذين رد عليهم ابن جني في باب مستقل من كتاب "الخصـائص"، ومما قال في هذا الباب: "فإذا رأيت العرب قد أصـلحوا ألفاظهم وحسَّنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غرويها وأرهفوها، فلا ترينَّ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدْمة منهم للمعاني، وتنويه وتشـــريف، ونظير ذلك إصـــلاح الوعاء وتحصينه، وتزكيته".

كانت اللغة الفارسية في الشرق هي التي يمكن – بما لها من فصـاحة وحسن بيان – أن يوازَن بينها وبين اللغة العربية، وقد شـــهد بعض الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأن العربية أرقى مكانة، وألطف مســالك، قال ابن جني في "الخصــائص": "إنا نســأل علماء العربية ممن أصــله أعجمي، وقد تدرب قبل اســتعرابه، عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل الســؤال عن ذلك؛ لبعده في نفسه، وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه. سألت غير مرة أبا علي عن ذلك، فكان جوابه عنه نحواً مما حكيته".

وقد استدلّ بعض علماء الأدب بما كتبه أرسطو في "الشعر" على أن الشعر العربي أرقى من الشعر اليوناني.

قال حازم في كتاب "المناهج الأدبية": "ولو وجد أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب؛ من كثرة الحكم والأمثال، والاســتدلالات، واختلاف ضــروب الإبداع في فنون الكلام لفظًا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني، وحسن تصرفهم في وضعها، ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها، وطلب التفاتاتهم وتمنياتهم، واســتطراداتهم وحســن مآخذهم ومنازعهم، وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاؤوا؛ لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية".

هذه شهادات صـادرة ممن يعتقدون أن للغة العربية فضـلاً من جهة أنها اللسـان الذي نزل به القرآن الكريم.

وإليك شهادات ممن لا يؤمنون بالقرآن، وإنما ينظرون إلى اللغة من ناحية حسن البيان.

قال المستشرق أرنست رينان في كتابه "تاريخ اللغات السامية": "من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحَّل. تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت، ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر، حتى إنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة – لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، ولا نعلم شبيهًا لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة".

وقد ذكر محاسن العربية رجال يعرفون غيرها من اللغات الراقية، وشهدوا لها بأنها أقرب اللغات انطباقاً على النظم الطبعية.

قال المطران يوسف داود الموصلي: "من خواصّ اللغة العربية وفضائها: أنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق؛ بحيث إن عباراتها سلسلة طبيعية، يهون على الناطق صافي الفكر أن يعبر فيها عما يريده من دون تصنع وتكلف، باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعي، وهذه الخاصية إن كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية في وجه من الوجوه، فقلما نجدها في اللغات المسماة "الهندية الجرمانية"، ولا سيما الإفرنجية منها".

لندع الحكم بين اللغة العربية وأي لسان أعجمي لمن يعرف العربية الفصحى، ويعرف ذلك اللسان الأعجمي، فهو الذي قد يصغي إليه الناس متى آنسوا فيه الإنصاف، ويتلقون حكمه بالقبول. والذي أقوله، وأنا على بينة مما أقول: إن أساليب اللغة العربية أقرب إلى النظم الطبعية من اللسان الألماني؛ فإن في اللسان الألماني ضروباً من التصرف يفقد بها الكلام ترتيبه الطبعي، وليس لهذه الضروب في العربية الفصحى من شبيه، وسنلمّ بشيء من أمثلة ذلك في بعض فصول هذا الكتاب.

* الحاجة إلى مجمع لغوي:

قد أريناك أن اللغة العربية بالغة من حسن البيان ما ليس بعده مرتقى، وكانت تجري مع العلوم والحضارة جنبًا لجنب، فلا يقف عالم أو خطيب أو شاعر، إلا وجد في غزارة مادتها داحكام أساليبها، ما يمكنه من إبراز الحقائق أو المتخيلات في برود ضافية محبَّرة. ثم أدركها نقص منذ حين، وأخذت تتباطأ في مسايرة العلوم والمدنية، حتى تقدمها كثير من اللغات النامية، وأصبحت هذه اللغات تجول في كثير من العلوم والفنون، وتعبر عن معان تقف دونها اللغة العربية صامتة.

ولم تقع اللغة العربية في هذا التباطؤ لقلة مفرداتها، أو ضيق دائرة تصريفها، أو إبايتها نقل بعض كلماتها عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى تناسبها، ولو كان لشيء من هذا دخل في

تباطئها؛ لعذرنا أولئك الذين يحاولون صـــرف الألســـنة عنها، ويدْعون إلى أن تأخذ كل جماعة بلغتها المعتلة المشوهة، ولعذرنا أولئك الذين يدعون إلى استعمال الألفاظ الأعجمية، وحشرها في منشآتنا وأشعارنا وخطبنا ومحاوراتنا، وإنما علة ذلك النقص: غفلةُ إلمعهودِ إليهم بالقيام على حياة اللغة، ومسايرتها للعلوم والفنون والمدنية.

والوسيلة التي تنهض باللغة، وترفعها إلى مستوى اللغات الراقية، هي الوسيلة التي نهضت بتلك اللغات الحية، وجعلتها تســـير مع العلم والحضـــارة كتفًا لكتف؛ أعني: تأليف مجمع لغوي ينظر فيما تجدد أو يتجدد من المعاني، ويضـــع لكل معنى لفظًا يناســـبه، ولا عجب أن تكون اللغات الأجنبية الراقية قائمة بحاجات العلم والمدنية؛ وأن يكون باللغة العربية خصـاصـة من هذه الناحية؛ فإن أصـــحاب تلك اللغات قد ســـبقونا إلى عقد المجامع اللغوية منذ أحقاب، فالمجمع اللغوي في ألمانيا تألف سنة ١٦١٧ م، والمجمع اللغوي في فرنسا تألف سنة ١٧٣٤ م، ولم ننس أن كلمات كثيرة حدثت في اللغة العربية لهذا العصـــر، وأصـــبحت تجري على ألســـنة أدبائنا، وتخطها أقلام كتابنا، وهي عربية المنبت، خفيفة الوقع على الســـمع، آخذة حظها من مناســـبة الوضـع، ولكن العلوم تتدفق تدفق السيل، ومقتضـيات المدنية تتجدد تجدد النهار والليل، وكل من المعاني العلمية والمرافق الحيوية يحتاج إلى أســماء تلتئم مع ســائر الألفاظ العربية التئام الدرر النقية في أســلاكها، وتلك الكلمات المشــار إليها إنما هي من صــنع أفراد قد تنســاق إليهم من نفسها، فيقع عليها اختيارهم، وتصادف في الناس حاجة، فتتلقفها ألسنتهم، وهذه الطريقة لا تشفي غلة العلم، ولا تملأ للمدنية عينًا، وإنما يشـــفي غلة العلوم المتكاثرة، ويملأ عين المدنية الزاخرة تأليفُ مجمع لغوي يسير مع العلوم والمدنية، لا يتأخر عنها طرفة عين.

ذكر ابن حزم في كتاب "الإحكام" سـنةً من سـنن الكون في سـقوط اللغة، فقال: "إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل، بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مسكنهم، أو تنقلهم عن ديارهم، واختلاطهم بغيرهم؛ فإنما يقيد لغةَ الأمة وعلومها وأخبارها قوةُ دولتها، ونشـاط أهلها وفراغهم؛ وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوُّهم، واشـــتغلوا بـالخوف والحـاجـة والـذل وخـدمـة أعدائهم، فمضــمونٌ منهم موت الخاطر، وربما كان ذلك سـبباً لذهاب لغتهم، ونسـيان أنسـابهم وأخبارهم، وبُيود علومهم؛ هذا موجود بالمشاهدة، ومعلوم بالعقل والضرورة".

وقد أصــاب ابن حزم في حكمه على الأمة التي تقع تحت ســلطان من لا ينطق بلســانها؛ من أن لغتها تصـــير الى انحطاط أو ضـــياع، وهذه ســـنة لغات الأمم التي يجدها الأجنبي في جهالة، ويتمكن من أن يبقيها في جهالتها؛ أما الأمة المتيقظة لوســـائل ســـلامتها وعزتها، فإنها تندفع في ابتغاء هذه الوسائل بكل ما تستطيع من حيلة، وتسلك له ما تهتدي إليه من سبيل؛ فلا تألو جهداً في الاحتفاظ بلغتها، والعمل لإعلاء شـــأنها، على الرغم من كل من يكيد لها، ويبري السهام ليرمي بها مقاتلها.

وفي البلاد التي تنطق بالعربية شعور ساطع في نفوس شيوخها وشبابها؛ ومن أثره: هذه الغيرة التي تملأ ما بين جوانحهم، وتهزُّهم أفرادًا وجماعات إلى النظر في إصـــلاح ما اختل من أمورنا، وإعادة ما تقوض من مجدنا؛ فنحن على ثقة من أن اللغة العربية ســـترفع رايتها، وتفوق اللغات الراقية بغزارة مادتها، وفضـــل بلاغتها؛ وما ذلك من همم أبنائها وطموحهم إلى الحياة الماجدة ببعيد.

المحتويات

مقدّمَة الإمام محمّد الخضر حسين ٥

فضل اللغة العربية، ومسايرتها للعلوم والمدنية ٧

* **اللغة**:..... ٧
* أصل نشأة اللغة: ٨
* تأثير الفكر في اللغة:..... ٨
* تأثير اللغة في الفكر:..... ٩
* هل يمكن اتحاد البشر في لغة؟ ٩
* اللغة العربية لا تموت:..... ١٠
* اللغة في عهد الجاهلية: ١١
* تأثير الإسلام في اللغة: ١٢
* فضل اللغة العربية:..... ١٣
* الحاجة إلى مجمع لغوي:..... ١٤